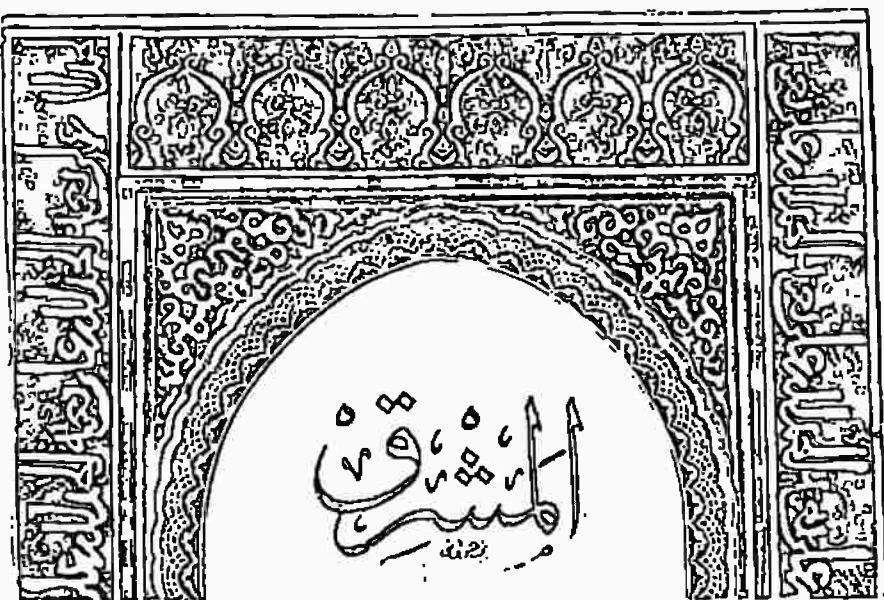




تشرين الثاني ١٩٣٩

نفوذ السيد المسيح

في حياتنا الاجتماعية

بقلم الاب مرمرجي الدومنيكي

من المائدة المهد الكتاني والاثري الفرنسي في القدس الشريف

يليق بنا ، قبل الخوض في هذا البحث ، ان نصنع ما صنعناه ، توطيناً للقال السابق^(١) ؛ اي ان نحدد الحياة الاجتماعية ، كما حددنا الحياة الادبية . الحياة الاجتماعية هي عيشة الفرد بصحبة اقرانه في البشرية . وهي حالة واقعية غير مفتقرة الى دليل . على انها ، ان كانت اليوم شائعة بين ابنا آدم ، فهل يا ترى كانت منذ نشأة الانسانية ، وهل هي حال طبيعية ؟

قد ذهب بعض الفلاسفة العصريين ، وفي مقدمتهم روسو ، الى ان العيشة

(١) راجع عدد نفوذ القانت (ص ١٨١ - ١٩١) وفيه المقال عن « نفوذ السيد المسيح في حياتنا الادبية »

باجتماع ليست من مطلبات الطبيعة ، بل ان البشر ، بمد ان كانوا منفردين ،
التأموا يوماً ، وتعاهدوا بميثاق مجمين على العيش عيشة الجمعية . غير ان جمهور
الفلاسفة ينفون هذا القول متفقين على ان حياة الاجتماع ناشئة عن طبيعة
الإنسان ، لما فيه من الحاجة الماسة اليها ؛ ولما هو مزدان به من الخواص
الملائمة لها ، من مثل العقل ، وابرز الخواطر ، والتكلم ، وما اشبه ذلك .
فالإنسان اذن أليف ، اجتماعي من طبيعته ، ومن اول نشأته .

على اننا قلنا ، في المقال السالف ، ان لكل حياة لا بد من غاية ونظام .
فغاية الالة الاجتماعية القريبة هي الخير العام ، بالسعي في إيجاد السعادة الزمنية
لمجموع الافراد ؛ وغايتها البعيدة هي ان تكون وسيلة للبلوغ الى الناية
التصوى ، المتوخاة من الحياة البشرية الادبية . اما نظام الحياة الاجتماعية فقد
اختلف فيه الفلاسفة المشتغرون ، باختلاف الازمان . اما في عصرنا الحاضر ،
فالمشتغرون المدعون الاصلاح يفتخرون بانهم وضعوا للالة نظاماً كاملاً يحصره
بهذه الكلمات الرثانة الثثانة وهي : الحرية ، الاخوة ، المساواة . لكنهم
نسوا او تناسوا اسراً جوهرياً هو بمنزلة الروح لهذه المبادئ ، الا وهو أمر
السلطة القائمة عليها كل حياة اجتماعية ، وبدونها تتعرض اركانها ؛ ولولاها ،
فليس من سبيل الى الحرية والاخوة والمساواة الحقيقية . لان من قوام المجتمع
الداخل فيه افراد شتى ان يكون له نظام ، وآلاً لسادت القوضى والتنازع ،
ومن ثم التباعد والتطاحن ، الناجم عنها الخراب والاضحلال . فمن قال
بوجوب النظام ، قال حتماً بوجوب وجود منظم . وليدع هذا المنظم باي اسم
كان ، فلا بأس ؛ ما دام لا تتزع منه خاصيته الجوهرية اي التنظيم او الادارة
او الحكم . فليسم اذن رئيساً ، او زعيماً ، او اميراً ، او ملكاً ، او
امبراطوراً ، او دكتاتوراً ؛ فليطلق عليه اسم حكومة مطلقة ، او مقيدة ،
او جمهورية . لان الامر الضروري فيه هو انه المبدأ الاساسي للالة الاجتماعية
الذي ينظمها ويديرها ، قصد الخير العام ، بموجب الشرائع الطبيعية والالهية
والمدينة .

وعليه ، فاذا كان المسيح قد جاء لانتقاذ البشرية من وهدة الحالة المضطربة

الساقطة فيها ، فقد وجه نظره ، فضلاً عما أعاده الى الافراد من افضال الحرية والاخوة والمساواة الحقة ، اجل قد وجه نظره ، بنوع خاص ، الى وضع اساس مكين للثلاثة باصلاحه السلطة . فكان نفوذه فيها نفوذاً فاعلاً الى بالخير والبركات على المجتمعات . واذا اتضح لنا هذا ، فما علينا الآن الا ان نرى كيف جرى هذا النفوذ في السلطة ، ومن ثم في الحياة الاجتماعية .

لكي نوقفك حق الوقوف على كيفية هذا النفوذ ، يجدر بنا ان نسرده لك اولاً الكلام الذي انشأ في العالم السلطة المسيحية . يجزينا الانجيل المقدس ان الرسل كانوا ذات يوم مجتمعين حول مملوهم الالهى ، فسألهم قائلاً : « من تقول الناس ان ابن البشر هو ؟ فقالوا : قوم يقولون : انه يوحنا المعمدان ، وآخرون انه ايليا ، وآخرون انه ارميا ، او واحد من الانبياء . قال لهم يسوع : وانتم من تقولون اني هو ؟ اجاب سمان بطرس قائلاً : انت المسيح ابن الله الحي . فاجاب يسوع وقال له : طوبى لك يا سمان بن يونا ؛ فانه ليس لحم ولا دم كشف لك هذا . لكن اني الذي في السموات . وانا اقول لك : انت الصخرة ، وعلى هذه الصخرة ابني كنيسة ، وابواب الجحيم لن تقوى عليها . وساعطيك مفاتيح ملكوت السموات ، وكل ما تربطه على الارض يكون مربوطاً في السموات ، وكل ما حللته على الارض يكون محلولاً في السموات . » ويوماً آخر ، قبل ان يصعد الى السماء ، ظهر لرسله وقال لهم : « أعطيت كل سلطان في السماء والارض . اذهبوا الآن وتلمذوا الاسم معبدن ايام باسم الآب والابن والروح القدس ، وعلموهم ان يحفظوا جميع ما اوصيتكم به . وها انا معكم كل الايام الى منتهى الدهور . » هذا هو الكلام الذي ، مها حاول المكابرون ، فلا مجال لهم لانكار حقيقته ، او بالاحرى لانكار فاعليته التي غيرت الاحوال . اما نحن الذين يطيب لنا ان نكرر مع بطرس قائلاً : انت المسيح ابن الله الحي ؛ فلما يمكننا ان نتصور شيئاً اكثر جلالاً واشدّ حشماً من هذا الامر بالنظر الى الرقي الاجتماعي . فان

هذه الكلمات وغيرها كثيرة قد انشأت في البشرية سلطة الهية هي سلطة المسيح القائل لرسله: أعطيت كل سلطان في السماء وعلى الأرض. وهذا سلطاني الشخصي اريد ان اجعله سلطانكم ؛ لانه كما ارسلني الآب ، ارسلكم انا ؛ وكما ان سلطتي هي سلطة ابي ، فلطنتكم هي سلطتي . ومن يسع منكم فقد سمع مني ؛ ومن يحتقركم فقد احتقرني .

اننا غير جاحدين ان هذه الكلمات تتضمن سلطة متميزة عن سلطة حكام الممالك . لان الذي يهتأ هو ان يسوع المسيح قد أسس ، بهذه الاقوال ، جماعة جديدة في العالم ؛ وفي هذه الجماعة اقام رياسة ، ليست هي الأرياسته ذاتها . ومن سلطته هذه قد ارسل شعاعاً اثار جميع السلطات المختلفة . وبذلك احدث انقلاباً تاماً في اصل السلطة وموضوعها وغايتها ، وبذلك كُئِل النظام الاجتماعي برمته . وتظهر فاعلية هذا التأثير من مقارنة حالة السلطة قبل المسيح ، بما صارت اليه على يده .

كانت السلطة القديمة ممية في اصلها ومصدرها ، وذلك لخلوها من الصفة الالهية . انظر مثلاً الى السلطة الوثنية ؛ فانها كانت مستندة الى الانسان ، والى حقوق الانسان لا غير . اما السلطة المسيحية فتعتمد على سلطة الله ، وحقوقه الالهية وحدها . وهذا هو التباين العظيم بينها وبين السلطة الوثنية القديمة ، او السلطة العصرية غير المسيحية التي تحاول انكار سلطة المسيح . ففي كلا هاتين السلطتين ، لا تجد سوى حق الانسان في شخص المتقَدِّد زمام الامور ، والخضوع في شخص من يطيع . ترى الانسان حاكماً على الانسان ، والانسان خاضعاً للانسان . وهي الملة الخفية التي تفقد السلطات في عصرنا ، كما افندتها في الازمان السابقة . ومن ذلك قد حصل في هذا العصر ميل عام بين البشر ، الى تذليل السلطات ؛ وبتذليلها تذليل الجماعات التي تحكم عليها . وهذا الميل هو ميل الاعتراض على السلطة ، ورفضها ، وتحقيرها . ودونك ما يتشبثون به من التعللات : الانسان ماسر للانسان ؛ والبشرية مآزية للبشرية . فلماذا يا ترى

يحكم عليّ انسان. ولذا فاني انكر عليه هذا السلطان ، سلطان الأسر، عليّ ؛ وانكر واجب الطاعة له . اذن فليست الطغاة المحاولون ان يلقوا عليّ نيرهم ؛ ليعتقوا الملوك ، ليعتقوا الامبراطرة ، ليعتقوا كل حكومة ، ليعتقوا كل سلطة . « الا فلنعتق قيوهم ، ولنلقين عتاقهم . » هذا صراخ البشرية في كل هيئة او ألفة لا تعود ترى في السلطة سوى شخص الانسان . ولهذا فتى زالت كل صبغة الهية من السلطة ، ومضى تحت راية الله من جباه اولياء الامور ، فحينئذ قولوا : الويل ثم الويل للامم والممالك ، وللألفة الاجتماعية كلها . لان الولايات التي لا تستمد قوتها الا من الانسانية ، لا ترى الا وقد رُفعت عليها الوجة العصيان من كل جهة ، ولان وجود الله في المجتمعات لا بد من ان يؤذي ، عاجلاً ام آجلاً ، الى الفوضى في اللفة البشرية .

دوّنك الآن ما صنع السيد المسيح ليشفي السلطة من هذا الداء الاجتماعي الويل . انه اقام ذاته سيد البشرية التي جاء ليخلصها . وبذلك انشأ وقدس في الانسان سلطة الله عنه . لان رياسة الكنيسة ، كما هي في العرف المسيحي ، ليست سوى سلطة الله في وسط العالم . وهذا ما تخلو منه كل رياسة زمنية ، مهما كان اصلها الشرعي ، وبأي اسم سُميت . وبين سلطة الله وسلطة الكنيسة ليس من وساطة الا وساطة الوسيط الالهى يسوع المسيح ، اذ انه ليس بمنفصل عن الله ، ولا بمنفصل عن الكنيسة ، لكونه الاله المتأنس الحي دائماً في بيئته . والحال ان في ذلك لغزى لكل لبيب ؛ وهذا الغزى قد تضمن تطوراً في السلطة نجم عنه للتقدم الاجتماعي نتائج غير خافية . لان المسيح انبت في النفوس تلك الفكرة الممرانية الاجتماعية وهي فكرة السلطة الصادرة عن الله والمعتمدة باسمه . واطهر للعالم مثلاً للطاعة السامية ، وهو مثال المسيحي الخاضع للمسيح الذي يأمره في شخص الانسان . وهذا ما رقى الانسانية . فان المسيحي يمكنه ان يقول : اني منذ جلس المسيح بين البشر على عرش الملوكة ، يحق لي ان اعتبر ذاتي اعظم من ان اخضع لبشر . وقد نشأ لطاعتي واحترامي قيمة جزيلة . حتى اني اذا حنيت راسي للطاعة والانقياد . فقد حنيت لصولجان الله ذاته . فلا يحسرن الانسان بعد على ان يأمرني بطاعته ، فاني ارفض طاعته .

لكنه اذا اتاني باسم هذه العظمة الالهية الخاضع لها كل ما في السماء والارض ،
فعد ذلك يراني وديعاً طائعاً محترماً . لان الامر الذي يتزل علي من العلاء لا
يمكنه ان يحط من قدرتي . وانا موقن اني كلما اطمت ، ازدددت شرفاً بطاعتي ،
وارتفع مقامي . والعبودية ذاتها لا تعود حقارة لي ، بل لا يعود لها وجود في
نظري . لاني ان وقتت في اسر اعداء الدين ، فكُتبت بالقيود ، فانا شاعر
بمخزيتي ، لانه ان أخضع جسدي قسراً لسلطان الطغاة ، فاني احس بداخلي
اني لت بخاضع إلا لله . لان الاسر في سبيل الله حرية ، والعبودية حباً بالله
ملوكية .

العيب الثاني ، اي الملزم موضح السلطة الدنيوية ، هو استبعاد الضائر
البشرية بسيطرة الانسان . لان اولياء الامور كانوا قد طعموا في الاستيلاء على
الارواح . ولكي يتمكن الملوك والسلاطين من مد سلطانهم على الضائر ،
حاولوا صبغ اغتصابهم هذا بصبغة الهية ، فاعلنوا ذاتهم اجباراً . ولكي يُحقوا
على الجمهور هذا الاحتضام للحقوق البشرية ، اغتصبوا حقوق الالهية . فاضى
الملوك والامبراطرة اجباراً ؛ وباستغلالهم غباوة العامة ، بلت منهم الحيلة .
والعز ، لا بل الجنون ، الى ان اجبروا بكونهم آلهة . وهكذا ارتفع
هولاء الطغاة ، بثلاث درجات ، من مقام البشرية الى الملوكية ؛ ومن الملوكية
الى الخيرية ؛ ومن الخيرية الى الالهية . وبهذا اوقعوا البشر في وهدة العبودية
التي فيها استرقت ضائرهم لهؤلاء السرخ المقيمين مقام الآلهة .

اماً المسيح ، له المجد ، فلكي ينقذ ابنا المجتمع من هذه المذلة ،
ولكي يعيد اليهم ، مع الاستقلال المشروع ، عظمتهم الطبيعية ، ماذا يا ترى
عمل ؟ انه انشأ في العالم سلطة ميدان نفوذها ميدان النفوس ، كما ان مصدرها
من الله . وهذا ما دل عليه قوله لرسله : « أعطيت كل سلطان في السماء وعلى
الارض ؛ اذهبوا وتلمذوا الامم معدين ايام باسم الاب والابن والروح القدس .
وكل ما ربطتموه على الارض يكون مربوطاً في السماء ، وكل ما حلتموه على

الارض يكون محلولاً في السماء . فانت ترى ان يسوع يمنح تلاميذه سلطة وقدرة . لكن ما هي هذه السلطة وهذه القدرة ؟ انه لم يقل لهم كما قال بعض مؤسسي الاديان الباطلة : « هذا سيف اقلدكم اياه ، فاذهبوا وقاتلوا الكفار اينما وجدتموهم . فان ديني على السيف قائم ؛ والجنة تحت ظلال السيوف » ؛ بل قال لهم : هذه كلمتي ، اضعها على شفاهكم ؛ فاذهبوا وتكلموا بها ، معلمين الامم ما اوصيتكم به ، وادخلوا النفوس في مملكة الحق . فن آمن بكلامكم فقد خلص ؛ ومن لا يؤمن ، فلا حاجة الى سيف يضرب عنقه ؛ لانه ينال من ابي السامري العقاب الذي يستأمله . وبهذه الطريقة أسس يسوع ملكوت النفوس ؛ وهو عينه ملك هذه المملكة . فكأننا به واقف في وسط المسكونة ، على مدى الاجيال ، فيقول : هذه مملكتي : النفوس التي في المشرق ؛ النفوس التي في المغرب ؛ النفوس التي في الشمال ؛ النفوس التي في الجنوب . اجل ! انا الاله المتأنس ؛ انا ملك النفوس ؛ وليس للنفوس ملك بخيري .

على ان هذه الملكية المتجلية في شخص ابن الله قد اودعها الرب وانبتها في كنيسة ، لكي تسوس بها النفوس ، من اقاصي الارض الى اقاصيها ؛ والى منتهى العالم . هذا موضوع ايماننا . ومنذ ان أسس يسوع هذه السلطة في العالم ، هناك نوع من الظلم والجور لم يعد بعد في الامكان اتيانه ، دون ان يشير من اعماق النفوس سخطاً واحتجاجاً عنيفاً . اجل ! عند ابواب الضائر المسيحية ، قد وضع المسيح حداً لا مندوحة بعد للسلوك والمسلطين وباقي اركان هذه الدنيا ان يتعدوه . ولذا فنحن استولى المسيح على ضائر البشر ، نسع خارجة من افواه تلاميذه تلك الكلمة التي تفوق قوة على قوة الملوك ؛ الا وهي الكلمة التي اجاب بها ، لاول مرة ، رسل المسيح رؤساء اليهود الذين حاولوا ، بسبيل التهديد والتعذيب ، ان يصدوهم عن التبشير باسمه ، وهي « لا تقدر » ؛ وقد اعادها بعدهم جميع المسيحيين الاحرار على سماع مشريهم ومضطهديهم ومعذبيهم تائلين . انكم تريدون ان تخضع ضائرتنا لسيطرة بشرية ؛ لا تقدر . تريدون ان نضحي لمشيئة الانسان فكراً ، ولو واحداً ، او مبدأ ، ولو صغيراً ، من

مبادئ المسيح ؛ الا فاعلموا ان هذا غير ممكن ، لاننا لا نقدر . تطالبون الينا ان نشارك معه في هذه المملكة الواجب ان يسود فيها وحده ؛ لا نقدر ، لا نقدر . الا ايها الملوك ، ايها الطغاة ، اعدلوا عن هذا الفكر ؛ فاننا لا نقدر ، لا نقدر . اي نعم ! ان في استطاعتنا ان نزهد في كل شيء . عائد الينا . فدوتكم اموالنا و ثروتنا فاعتصبوها ؛ دونكم شرفنا وصيتنا ومقاماتنا ، فامتهنوها ؛ دونكم اجسادنا فمذبونها ، فزقوها ؛ دونكم ارواحنا ، فاذرعوها . لكن الدول عما يخص المسيح ؛ فهذا مستحيل علينا ؛ لا نقدر ، لا نقدر .

* * *

السبب الثالث ، اي المنفعة غاية السلطة البعيدة عن سلطة المسيح ، هو الانانية الموروثة في اجرائها . فان السلطة الوثنية كانت الغاية المتوخاة منها شخصية صرفاً ، اي لمنافع المتقلدين اياها . ولذا فقد اتى المسيح ، في ذا الشأن ، باصلاح اعد المستقبل نظاماً اجتماعياً جديداً للغاية . فانه حول غاية السلطة او قل ارجعها الى ما كانت عليه . فبعد ان كانت غاية الرياسة عند الوثنيين في شخص الأمر ، وضعها المسيح في شخص الطائع . فاضى ذلك العلامة الجوهرية الفارقة في كل سيادة مسيحية حقيقية خلافتها : المقصود من الحكم الخدمة ، وغاية التملك التفاني . وبعد ان كانت نيات الحكام الوثنيين التسلط على الغير ، لمصلحتهم الذاتية ، جا . المطلوب في السيادة المسيحية خدمة الغير ببذل النفس والنفس . وهاك ما ورد في الانجيل الكريم في ذا الشأن : كان الرسل يوماً مع معلمهم الالهى ؛ فسمعهم يتخاصمون بينهم في خصوص التقدم والسلطة . فدعاهم وقال لهم : « قد علمتم ان اراكنت الامم يسودونهم وعظماهم ملطون عليهم . واما انتم ، فلا يكون فيكم هكذا . لكن من اراد ان يكون فيكم اولاً ، فليكن للكل عبداً . فان ابن البشر لم يات ليخدم بل ليخدم . ويبذل نفسه فدى عن كثيرين . » بهذه الكلمات الصادرة من فم ذاك الذي اقام نفسه سيداً وملكاً على البشرية ، قد تغيرت حالة السلطة تغيراً هائلاً ، فرجعت الى غايتها الاولى ؛ بما نجم عنه ان كل سلطة آتية من يسوع المسيح يجب ان يعمل

بها كما عمل هو . وبما انه جاء ليخدم ، تخشع على المسطين باسمه ان يخدموا . وكل رياسة تحيد عن هذه الغاية لا تعود تسمى رياسة مسيحية . وكما ان كل طاعة تقف عند حد الانسان ، دون الارتقاء الى الله ، ليست بطاعة مسيحية ؛ فالسلطة ايضاً تبطل ان تكون مسيحية ، متى بطلت ان تكون لخدمة البشر . وعليه ترى ان هذه هي الشريعة السائدة في طبقات رؤساء الكنيسة المقدسة ؛ وانه كلما سمت الدرجة فيها ، ازداد واجب الخدمة . وما مُنتقى السلطة الكاثوليكية ألا نظام الخدم المتدرجة . فهناك كل كاهن هو خادم ؛ وكل اسقف هو خادم ؛ وكل رئيس اساقفة هو خادم ؛ وكل كردينال هو خادم ، حتى ان ذلك الرجل الذي يرفعه الله الى قمة الرياسة ، لكي يأمر على المسكونة جماء ، ذاك الرجل الذي هو نائب المسيح ، ورأس الكنيسة المنظور ، والحائز ملء السلطة ، اي سيدنا البابا ؛ اجل ان هذا الرجل الذي هذا علو درجته ، وامتداد سلطته ، يلعب نفسه بلقب يدل دلالة واضحة على وظيفته وعظمته معاً ، اي انه يسمي نفسه « عبد عبيد الله » او « خادم خدام الله » خادم الجميع لانه رئيس الجميع . ولم تكن هذه السلطة التي هذه صفاتها وهذه غايتها ألا لتؤثر في السلطات المدنية المسيحية . وبالحقيقة انها قد غيرت النظام الاجتماعي وقدمته . وبفضل هذا التقدم ، زال من السلطة ذاك العتو والطغيان الذي كان سائداً في العالم الوثني ، ولا يزال سائداً خارجاً عن الدين المسيحي وكنيسته المقدسة .

هذه هي السلطة التي انشأها المسيح لاصلاح وتقدم الألفة الاجتماعية . وهي سلطة الهية في مبدئها ؛ سلطة روحية في ميدان عملها ؛ سلطة متفانية في غايتها . فبكونها الهية ، اصدت الطاعة التي لا تؤدى ألا لله ؛ وبكونها روحية ولدت الاحترام الذي يرفض المرء ادائه لما هو مادي زمني صرفاً ؛ وبكونها متفانية قد أتت بالمحبة التي لا يجود بها الانسان لصاحب الانانية . وبهذا قد أسس المسيح للبشرة اعلى مدرسة للطاعة ؛ واعلى مدرسة للاحترام ؛ واعلى

مدرسة للمحبة ؛ ومن هذه المدارس الثلاث قد انشأ معهداً كاملاً يصدر منه الرقي في الحياة الاجتماعية . وقد عثمت هذه السلطة المسيحية ، بفعل رقيها الطبيعي ، عظمة عجيبة . فقد عرفت بها جميع الشعوب ، واحبتها واحترمتها واطاعتها . وقد اتصلت بها كل السلطات الزمنية ، فاحتكبت بها ، لا بل نازعتها ، فاضطهدتها . ألا ان هذه السلطات تغيرت ، فالتحطت ، فزالت ، فاضمحلت ؛ على حين ان سلطة المسيح في كنيسته ثابتة راسخة ، لان اساسها مكين ، راكز على الصخرة البطرسية . وهي اليوم ، كما كانت في القديم ، زاهية ، محترمة ، مطاعة ، محبوبة ، في العالم كله ، بينما زى عروشاً مدنية قد ثلث ؛ وامبراطوريات قد ترعزت وزالت ؛ وديانات دينية عظيمة تضرعت ، لا بل تلاشت ، فاضمحلت .

فالمسيح لم يؤثر نفوذه الفعّال في حياتنا ، لادنية فحسب ، او في الافراد وحدهم ، بل في الحياة الاجتماعية عينها . فاضحت رياسته الالهية بمنزلة الروح لهذا الجرم الجسمي ؛ وبمناطة الدولاب المحرك لجميع دواليب المجتمع الانساني . فحري بنا ان نفتخر بكنيسة المسيح التي غيرت الالفة واصلحتها ورققتها في معارج الفلاح . لنحن الكنيّة ، ولنتمسك بتعاليمها الالهية . لنحترمن الكنيّة ورياستها الروحية في حياتنا الاجتماعية . لنطيع الكنيّة ولنخضع لاوامرها وتهذيباتها . ومن كان خير عضو في الكنيّة المسيحية كان من احسن الافراد في الالفة الاجتماعية .

